وبالرغم من التساؤلات نقول: نعم لتناغم الجزء بالكل، نعم للفرح والأمل، نعم لقطار الزمن. أوَنقول أيضًا إنّ الأيام الأجمل لم تأت بعد ؟ كل التحية.

تساؤلٌ تَجَسَّمَ عبر قنطرة مستوية

د. كميل حنا مخّول❖

تحتّ الخطى بحثًا في الزمن الكتوم الذي حطَّ، فحطَّم، فتحجَّر، فامّحى من الذاكرة. عادت لتنتزع منه تساؤلاً لم يتفجَّر، علّها تعود لذاتها بجواب، وتعود بمَعْلم فمَعْلم فطريق... ووصلتْ!

تقف على عتبة البيت، لتدخل إلى الخارج، أو لتخرج إليه سيّان، عَبْر قنطرةٍ ما زالت متماسكة. وأكوامُ الردم تحيل القنطرةَ عينَ أمٍّ تترقب، تجوب المسالكَ ظمأى لظل أنيس.. وتشيح بنظرها عن ملامح درب لم يعد دربًا حين امّحتْ كلُّ معالم الطريق. فلم يبق غيرُ بضعة «بيوت شوك» تشبثتْ بمزَقِ مناديل الجارات، وبلعبة طفلٍ رأسُها حصوةٌ حوصرتْ بقصاصةٍ من زيّ عتيق. ويلوح من بعيدٍ حبلُ غسيل صُفَّتْ فوقه الأثوابُ خشيةَ الجفاف، تَنْفض عنها شمسَ حصادٍ لافحة، لئلا تزيّف لونَها الناعسَ فتحيله مهينًا وفاضحًا.

وقفتْ، والعتبةُ تحت قدميها هي الحقيقةُ الوحيدة التي صقلتْها الأقدامُ يومًا بعد يوم، وجيلاً في أعقاب جيل. هي قطعة الحقيقة الباقية، تُسْند إليها شظايا الحقيقة ـ شظايا الحقيقة كلها! وكان فزعٌ، وكان جزعٌ، وكان سكون.. ولم يك الربُّ قد خَلَقَ السؤالَ بعد.

ما جرؤتْ أن تحدِّق إلى شيء، بل بعثرتْ نظرةً إلى أشيائها الفزعة. تقاعستْ حيال تزاحُم الملامح التي اقتحمتْها. وإذ أدارت رأسَها ببعض قسوة لتستلّ ناظريْها من هذا الزحام أخذتْ أشياؤها تنداح وتتحرك ويرتطم بعضُها ببعض، كأنما تتراكض هي الأخرى لترحل. وشظايا الوعي التي تناثرتْ اتّسقتْ في بُعدٍ آخر تصاعديّ، تَنْتشر عليه الذكرياتُ، وقطعُ ذكرياتٍ ما أُمهلتْ لتكتمل، وتدلّتْ منه آمالٌ مبتورة وآثارُ طموحات تنزلق إثر دمعة كتومة وإثر زفرة تغلي. وكان سكون.

كأنّما اتكأتْ، لا تنضح فزعًا لثقل ذاك الفزع، ولا تُبدي جزعًا لعمق هذا الجزع. جمعتْ عينيْها كلتيْهما، وغرزتْ نظرتَها في أظفارها. وبحسرة ما زفرتْها رئتان قطّ، تلهفتْ لهفةَ عشرين جيلاً ومجازر!

ليت يا مرنوش[1] قد طالت أظافرنا!

ليت يا مرنوش قد طالت أظافرنا!

أنا ما ادَّخرتُ لهم كلامًا ما استهلكتْه مآسي الناس...

وما طالت أظافرنا!

لهفي على عينٍ تعاتب: «أين كُنتم!»

لهفي على زند توّعد: «كيف هِنْتم!»

ليت يا مرنوش قد طالت أظافرنا، لنقول: كنا في سبات!

فأنا ما عدتُ أفهم! ألسنا نتحدر ممن تعقّبوا الدّيم حين تمنَّعتْ، فابتغوا خراجَها؟ أم أنّا نتحدر ممن أناخوا الوعيَ اذ سقفوا السماءَ لتنبسط، لنصطاد التاريخَ والغَيْمَ والتقدمَ والدِّببةَ والغلبةَ والسلطانَ المسلول والرحمةَ والنصرَ المقدَّم والمؤخَّر، فكدنا نرتطم بالصخر الذي بُنيتْ عليه، والصخر الذي يُمتطى في الحلم الكبير ليحوط أمواهًا تضيق المحيطاتُ عن بلعها، وقد وعدنا بأن يدفقها طوفانًا يهول البغاة مذ اشتبقوا التفاح وهمّوا به.. إلى أن تشقق ثرى المستنقعات وديست القمم؟!

كنا نَرْصد النجوم، ونسترق النظرَ إلى «بنات نعش» حين سرين على درب التبن، وإذ باثنتين تتخلّفان وتختفيان خلف ثنية الهزيع، فتثيران همسَ الأخريات ببعضِ إثمٍ أو ببعض ظنّ. وكانت العيون شبقةً تزدرد الأبعادَ، وكانت الآذانُ مُرهفةً سكرى بلذة هذا الهمس. وانتظرنا، وانتظرنا، وعلا الضجيج، واشرأبّتْ أعناقُنا، وخفَّتْ كثافتُنا، وتسامى صبرُنا، فالهمسُ صار صاعقًا، وعلا ضجيجُ الرجم.. ويا مرنوش، ما ظلوا وما طالت أظافرنا! ما عُدتُ أفهم يا مرنوش كيف تُحزمَ الملامح، بل كيف

❖ ـ باحث في البيولوجيا الجزيئيّة البنيويّة، الجليل الأعلى، فلسطين المحتلّة.

١ ـ أحد أهل الكهف في مسرحية **أهل الكهف** لتوفيق الحكيم (١٩٤٠).

تُهزم الملامح، وكيف يَهْجرنا الوطن. رحلوا.. وقد رحل الوطن.
والحق أنّا لم نعيِّن نواطيرَ للوطن! ولما نعد فزاعة للكَرْم بلهاءَ مثيرةً.. إنما صرنا ـ وقد رحلوا ـ علامةَ مسّاح تشي بموقع اقتطاع مَنْ رحل!
رحلوا.. وقد رحل الوطن!
ما زلتُ أَجْهل يا مرنوش مَنْ منهم يلاحق مَنْ..
رحلوا وفوق أكفّهم وطنٌ ما دَجَّنوه وما ترجّل!
وطن يلاطِمُ مخرزًا في كل ساح
ولكلّ ساح مخرزُه
فيفرّ من قَصْرٍ لشهرٍ قاتم
ويفرّ من هَرَمٍ يطارد فجرَه
ويفر من تلٍّ يكبّل معصمَه
ينسلّ من كل الوثائق والمنابر والخطب
ويشدّ كلَّ مفاصِله
ليعود يُلْطم مخرزًا في غير ساح
كي ما تُخطّ الخارطة...

لهفي على طفل يقاتل!
لهفي على زمن سيأتي ويسائل:
كيف اختزلْتَ لذاك الطفل تحليقَ الطفولة
وكيف شددتَ في خدّيْه مرونةً تضحك
وكيف وأدتَ في عينيه طاقات الفرح؟

أَذْكر يا مرنوش، لكنْ لستُ أفهم! عندما انقضّ الفضاءُ الرحبُ صاعقًا كما بدا، ليُطْلق ما حوصر منه تحت السقوف وبين خلايا قمح وسكر، كانت عيونُ الأطفال تَعْبث به عبر دهور، فيحدِّد الأحلامَ والهويةَ والملامح، ويؤكد الانتماء ـ كلما رحل مساء...

وأتى!
ما شذّ عن حشد الأماسي إذ أتى
يتلوّى.. يتثاءب
يلملم ما تساقط من تفاصيل النهار
ويَرْكنها تحت الوسائد خلسةً
تلهو بها أناملُ الليل
لتحيك منها لكل عينٍ حلمَها
وتمدّه بما اتفق
كيما تملّ النومَ عينٌ تتحفّز للفرح!

وأتى..
ما شذّ عن حشد الأماسي إذ أتى
إنما.. طال المساء
كلما ظنوه ينأى يتجدد
وتراءى لهم أضغاث نوم
وعندما نسف المعالم قد تجسّد!
وجاء مِنْ بعد المساء
ما شذّ عن حشد الليالي حين جاء
فلم يلملم غيرَ أعقاب المِحَن
ويركنها بين القناطر جمرة
ليفجّ منها بعض وعي للحقيقة!
ووعيت يا مرنوش حين أقصَوْا ذاتَنا عن ذاتنا
يوم استباحوا همسَنا وصادروا أسرارَنا
فباعدوا ما بين أمس والغد
وسمّروا آهاتنا
وشوّهوا أسماءنا واستنسخوا سِماتنا
كم تاقت الآذانُ فينا لبعض همس
فقاومْنا وقاومْنا لنحفر بعضَ ذاكرة وديعتنا إلى المطلق
نُوائمها بأمنية
لعلّ النفعَ في الذكرى.
فلم تورقْ أمانينا
ولُذْنا بالفرار إلى فيّ المنابر
لنُسقى كأسَ تدجين الضمائر
ونسلكَ نهجَ تفريغ المهج
لعلنا نمسي الحدود.
وهناك يا مرنوش قد زّجوا بطموحي وغدي في دائرة
لأجوب محورَها العقيم
مسبِّحًا لله أني «الحدّ»
فإنْ حل القرار يقول: ذاك الحدّ... فلأُقِمْ ميعادَهم!
وصحوتُ،
وصحوتُ يا مرنوش حين تفتّح الحجرُ الملفَّعُ بالركام وبالأماني
وهَبَبْتُ أهتف لدروبٍ دافقاتٍ صوب أصفاد الوطن:
تموز[1] قام مظفّرًا

---

١ ـ الإله المحيي الخيّر في أسطورة جلجامش السومرية. كان يكرَّم في الخامس والعشرين من يناير احتفالاً بتحرره من قيود مملكة الموت (البرد). وتبدأ الحيوية تدبّ في عروق النبات والأحياء بتحرره.

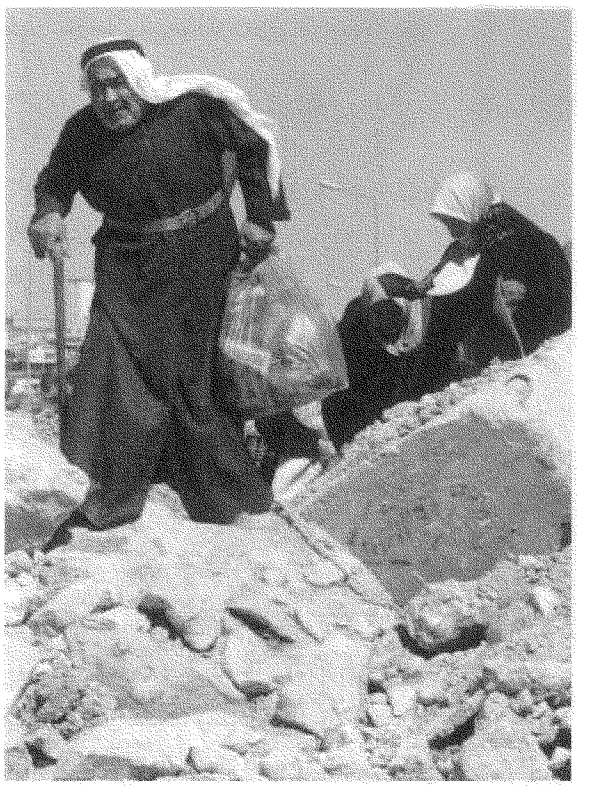

تموز عاد!
تموز قام مظفّرًا
تموز عاد لألتئم
تموز قام لألتحم
تموز قام مظفّرًا
تموز عاد!
فنفضتُ خوفي والتزاماتِ البرامج الهجائن
وعدوتُ أختزلُ المسافات الطويلة من غدي المتجمّد!
عشتار[1] وافتني بأحمال من الزمن الخصيب
لأُعيد تخطيط الدوائر مَسْلكًا لطفولة تتمهل!
فرقّصت دمعي، والمجازر
وشدوت كبتي وجراحي وحنيني
وصلبت أنّاتي مسمّرة
جسرًا لغدٍ حتمًا سيغرق في الضحك!
تموز قام مظفّرًا
تموز عاد!
تموز قام مظفّرًا
تموز...

وجننتُ!
وجننتُ يا مرنوش إذ بدا يفتاح[2] يبني مذبحه
لم أدرِ أنني كنتُ أولَ مَنْ يهبّ ومَنْ يزغرِد في الشوارع
حتى انبرى يفتاح يُشعل مذبحَه!
ليضحي بكْرُ أفراحي أضحيةً في المقصلة!
عشتار عادت كي تلملم حملَها:
تموز غاب.. ولن يعود
فزفرتُ خوفًا وقد تعتّق في ثناياي وأشقى
تموز غاب ولن يعود!
عادوا وقد رحل الوطن!
ولما أعد فزّاعةً للكرم مثيرةً
فهناك يا مرنوش قد زجّوا بغدي في الدائرة
لأجوب محورَها العقيم مردِّدًا للناس
أني جزء الذي ما ينبغي أن يلتئم
وأجوب محورها العقيم تهيؤا للقادم
من زمن يعيدني دائمًا للحاضر!
اليوم يا مرنوش يمكنك الرقادُ المستطيل
فأنا مسجّى في فراغٍ لولبيّ
لا هتافي قد يقض مضجعًا
ولا سؤالي يستثير الثائرة
هوذا يفتاح يقايض أن تسوى القنطرة
بطيّ أمسي وغدي والذاكرة
الآن يا مرنوش قد زجّوا بغدي في الدائرة
يفتاح خطُّ الدائرة
يفتاح خطُّ الدائرة!

مخول ـ البقيعة
(أعالي الجليل)

---

١ ـ إلهة الخصب.

٢ ـ الملك القائد الذي نصره الإله في معركته الفاصلة ضد عدوه، فنذر أن يقدّم أولَ كائن حيّ يصادفه في مداخل مدينته ـ مملكته ـ قربانًا. ويشاء القدر أن تكون ابنتُه ـ وحيدتُه ـ هي أول مَنْ يهبّ فرحًا لملاقاة أبيها المنتصر. (**بنت يفتاح**، لسعيد عقل)